@ 696 @ لها) ^ أي : دائما تجري لمستقر لها ، قدره ا لها ، لا تتعداه ، ولا تقصر عنه ، وليس لها تصرف في نفسها ، ولا استعصاء على قدرة ا تعالى . ^ (ذلك تقدير العزيز) ^ الذي بعزته ، دبر هذه المخلوقات العظيمة ، بأكمل تدبير ، وأحسن نظام . ^ (العليم) ^ الذي بعلمه ، جعلها مصالح لعباده ، ومنافع في دينهم ودنياهم . ^ (والقمر قدرناه منازل) ^ ينزلها ، كل ليلة ينزل منها واحدة ، ^ (حتى) ^ صغر جدا و ^ (عاد كالعرجون القديم) ^ أي : عرجون النخلة ، الذي من قدمه ، نش ، وصغر حجمه ، وانحنى ، ثم بعد ذلك ، ما زال يزيد شيئا فشيئا ، حتى يتم نوره ، ويتسق ضياؤه . ^ (وكل) ^ من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، قدره ا تقديرا لا يتعداه ، ولكل له سلطان ووقت ، إذا وجد ، عدم الآخر ، ولهذا قال : ^ (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) ^ أي : في سلطانه الذي هو الليل ، فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل . ^ (ولا الليل سابق النهار) ^ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه . ^ (وكل) ^ من الشمس والقمر والنجوم ^ (في فلك يسبحون) ^ أي : يترددون على الدوام . فكل هذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر ، على عظمة الخالق ، وعظمة أوصافه . خصوصا ، وصف القدرة والحكمة ، والعلم في هذا الموضع . ^ (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون * وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم ا قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشآء ا أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) ^ أي : ودليل لهم وبرهان ، على أن ا وحده المعبود ، لأنه المنعم بالنعم ، الصارف للنقم ، الذي من جملة نعمه ^ (أنا حملنا ذريتهم) ^ قال كثير من المفسرين : المراد بذلك : آباؤهم . ^ (وخلقنا لهم) ^ أي : للموجودين من بعدهم ^ (من مثله) ^ أي : من مثل ذلك ، أي : جنسه ^ (ما يركبون) ^ به . فذكر نعمته على الآباء ، بحملهم في السفن ، لأن النعمة عليهم ، نعمة على الذرية . وهذا الموضع من أشكل المواضع علي في التفسير . فإن ما ذكره كثير من المفسرين ، من أن المراد بالذرية الآباء ، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء . بل فيه من الإبهام ، وإخراج الكلام عن موضوعه ، ما يأباه كلام رب العالمين ، وإرادته البيان والتوضيح لعباده . وثم احتمال أحسن من هذا ، وهو أن المراد بالذرية ، الجنس ،

وأنهم هم بأنفسهم ، لأنهم هم ، من ذرية بني آدم . ولكن ينقض هذا المعنى قوله : ^ (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ^ إن أريد : وخلقنا من مثل ذلك الفلك ، أي لهؤلاء المخاطبين ، ما يركبون من أنواع الفلك ، فيكون ذلك تكريرا للمعنى ، تأباه فصاحة القرآن . فإن أريد بقوله : ^ (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ^ الإبل ، التي هي سفن البر ، استقام المعنى واتضح . إلا أنه يبقى أيضا ، أن يكون الكلام فيه تشويش ، فإنه لو أريد هذا المعنى ، لقال : وآية لهم أنا حملناهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . فأما أن يقول في الأول : حملنا ذريتهم ، وفي الثاني : حملناهم ، فإنه لا يظهر المعنى . إلا أن يقال : الضمير عائد إلى الذرية ، وا أعلم بحقيقة الحال . فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع ، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد ا تعالى . وذلك أن من عرف جلالة كتاب ا ، وبيانه التام من كل وجه ، للأمور الحاضرة والماضية ، والمستقبلة ، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله ، وكانت الفلك من آياته تعالى ، ونعمه على عباده ، من حين أنعم عليهم ، بتعلمها إلى يوم القيامة ، ولم تزل موجودة في كل زمان ، إلى زمان المواجهين بالقرآن . فلما خاطبهم ا تعالى بالقرآن ، وذكر حالة الفلك ، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك ، في غير وقتهم ، وفي غير زمانهم ، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية ، والشراعية منها والبخارية ، والجوية السابحة في الجو ، كالطيور ونحوها ، والراكب البرية ، مما كانت الآية العظمى فيه لا توجد إلا في الذرية ، نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال : ^ (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) ^ أي : المملوء ركبانا وأمتعة . فحملهم ا تعالى ، ونجاهم بالأسباب التي علمهم ا إياها ، من